

François Burgat

Comprendre l'islam politique: Une trajectoire de recherche sur l'altérité islamiste, 1973-2016

(Paris: La Découverte 2016). 310 p.

فهم الإسلام السياسي: مسار بحث حول الآخر المسلم، ١٩٧٣ - ٢٠١٦

ساري حنفي (*)

أستاذ علم الاجتماع، الجامعة الأميركية في بيروت.

وفيها تمحيص في تطور الدراسات البحثية والإعلامية حول موضوعة الإسلامية، وبخاصة تطور علم الإسلاميات الفرنسي.

- ١ -

لقد بنى بورغا موضوعة الإسلامية بعرق جبينه من خلال إقامات بحثية ومهنية طويلة في عدة بلدان عربية: الجزائر، تونس، اليمن، ليبيا، مصر، سورية، لبنان، منصباً على إجراء مقابلات معمقة مع الفاعلين في الحركات الإسلامية في هذه البلدان وغيرها، إضافة إلى إثنوغرافية راقية لمسارات بعض الشخصيات الإسلامية وتحولاتهم الفكرية عبر الزمن. إنه الفارس الممتطي حصاناً جامحاً، يجول في عكس تيار الريح العاتي لعلم الإسلاميات الفرنسي. ذاك العلم الذي انطبع بأنه مجال

فهم الإسلام السياسي: مسار بحث حول الآخر المسلم هو ليس كتاباً بحثياً بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، وليس مذكرات لباحث يضع نفسه في وسط الأحداث، ممجداً ذاته بحيث تصبح هذه الأحداث شاهدة على بطولته. إنه سردية معقدة تذكرني كثيراً بمذكرات مالك بن نبي مذكرات شاهد للقرن^(١). ففي سردية فرانسوا بورغا، مدير الأبحاث في معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي في «إيكس أون بروفانس» (فرنسا)، شهادة ذاتية: كيف اكتشف الشاب اليافع الذي تربى في منطقة سافوا في جبال الألب الفرنسية الوطن العربي، وكيف بنى موضوعة الإسلامية (Objet islamisme)؛ وفيها شهادة رائعة على أهم الأحداث التي اجتاحت الوطن العربي بشكل أساسي منذ الاستقلال حتى يومنا هذا؛

- ٢ -

لقد بنى فرانسوا بورغا موضوعة الإسلامية من خلال عدة كتب، من أهمها الإسلام السياسي: صوت الجنوب^(٢)، و Face to Face with Political Islam^(٣) والإسلام السياسي في زمن القاعدة^(٤)، ليكتشف نحو كل حركة إسلامية على حدة من خلال ربط هذا النحو بالسياق الاجتماعي - الاقتصادي والتاريخي، وأظهر كيف يتطور هذا النحو مع الوقت. فبالنسبة إليه، الحركات الإسلامية هي امتداد للحركات التحررية والاستقلالية في المنطقة، ويراهم حركات اجتماعية وثقافية تعبر عن تطلعات الشرائح الأوسع من الناس. ولكن يظهر بورغا حساسية أكثر شدة للبعد التاريخي منه للاجتماعي - الاقتصادي، مسلطاً الضوء على أن كثيراً من أفعال الحركات الإسلامية الراديكالية، هي رد فعل أكثر منه فعل، من سيد قطب إلى بن لادن. ولكن لا يمكن اعتبار بورغا أنه باحث مسحور بالنزعة ما بعد الكولونيالية أو العالم - ثالثة. فهو يعتبر أن هناك اتساقاً بين الاختلافات الدينية والثقافية، وبين إيمانه العميق بوجود عالمية إنسانية مورثة (Universalisme humaniste hérité).

بدأ بورغا حياته يسارياً أقرب إلى الماركسية. لذا عندما ذهب إلى الجزائر (١٩٧٣ - ١٩٨٠) فقد اختار موضوعاً يتعلق بسياسات الدولة الجزائرية الاشتراكية. ولكن تجربة الجزائر ستؤدي دوراً رئيساً في مساره الفكري. فمن جهة أولى، سوف يشهد على كيفية قتل البيروقراطية والاستبداد السياسي

سيطرت عليه عموماً العلوم السياسية، ومنذ بتموليات حكومية ليخدم في كثير من الأحيان البوليس في مشروعه الأمني ضد الإرهاب، وضد المعارضات المقاومة غير المرغوب فيها. في الوقت الذي جنح هذا العلم بالتبسيط والتعميم المفرط والاختصارات الجوهرية حول الإسلام والإسلامية، بنى بورغا منهجيته على أن الاتجاهات الإسلامية للشعوب العربية قد امتازت بلسان إسلامي مشترك، وأفعال اجتماعية وسياسية مختلفة (Un parler musulman commun, des agirs variés). هذا اللسان الإسلامي المشترك هو مفردات معجمية (lexique) وليست قواعد نحوية (Grammaire). أي أن هذه المفردات التي تنادي بالسياسة والعدالة الاجتماعية والهوية والحقوق هي وسيلة لوصف الأشياء وربطها بفضاء رمزي، أكثر مما هو معياري صارم، وتالياً، يسمح بإمكانات كثيرة للتفكير والتصرف، بناءً على هذه الوسيلة. فمثلاً، إذا كان مفهوم الشورى هو مفهوم مستقى من السياق التراثي الإسلامي، فإن هذا المفهوم سوف يركب بطرائق مختلفة (قواعد نحوية)؛ فهناك مثلاً نحو سلفي - سياسي سوف يستخدم الشورى على أنها غير ملزمة، بينما سيستخدمها نحو آخر بطريقة تجعلها شبيهة بمفهوم الديمقراطية. بالنسبة إلى بورغا، حين يجد الغرب نفسه أمام معارضة تستخدم المعجم أو القاموس الثقافي الإسلامي، فإنه يلصق مسؤولية مقاومة الغرب بهذا المعجم، من دون التساؤل عن مسؤوليته التاريخية والحالية في ذلك.

(٢) فرانسوا بورغا، الإسلام السياسي: صوت الجنوب (القاهرة: دار العالم الثالث للنشر والتوزيع، ٢٠٠١).

(٣) François Burgat, Face to Face with Political Islam (London: I. B. Tauris, 2002).

(٤) فرانسوا بورغا، الإسلام السياسي في زمن القاعدة (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥).

ليس سياسياً؛ فسجن الآخر المعارض في الدين هو محاولة لإتمام إبعاده عن السياسي. لقد بينت تجربة بورغا في السودان على تجديدية إخوان السودان مقارنة مع الصوفية السائدة هناك، آنذاك. ويكتب بورغا عن تجربة السودان في ظل حكم الترابي في تأديتها دوراً مهماً في بداية التسعينيات في تنظيم مؤتمرات لخلق تحالفات بين القوى الإسلامية الصاعدة مع القوميين واليساريين، وكيف ساهمت هذه الملتقيات في بدء العلاقة بين حزب الله وحركة الجنرال ميشال عون، وبين حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية. وهذا لم يرق بعض أجهزة الاستخبارات الغربية. ويذكر بورغا أن جهاز الاستخبارات الفرنسية قد أرسل مخبراً للتعرف إلى من يحضر في هذه الملتقيات، مدفوعاً من قبل وزير الداخلية السابق شارل باسكوا.

ويتابع بورغا مسيرته متحدثاً عن تجربته كمدير لمركز البحوث الفرنسي في اليمن. وكون هذا البلد لم يكن مستعمراً من قوى غربية، شعر بورغا براحة أكبر في تعامله هناك، وبنى علاقات مع شرائح واسعة من النخب الأكاديمية والسياسية. لقد اهتم بكيفية أن يأخذ التحديث مجراه هناك من دون أن يكون مدفوعاً من قبل مستعمر. وكان لبورغا التجربة الأولى في المساهمة بربط الباحثين المحليين في إنتاج المعرفة مع زملائهم الفرنسيين، عن طريق بوابة نشر رقمي سريع وبلغات مختلفة ضمن موقع مركز البحوث الفرنسي. وسيكرر بورغا ذلك عندما أصبح مديراً للمعهد الفرنسي للشرق الأدنى في دمشق.

- ٤ -

ينهي بورغا كل فصل حول بلد عربي بشهادته حول الانتفاضات التي جرت هناك. هذه الانتفاضات التي أثبتت فرضياته السابقة على أهمية النخب الإسلامية كفاعلين أساسيين

للمشروع الاشتراكي الجزائري. ومن هنا، وعى بورغا ترهل اليسار القومي والاشتراكي العربي وعدم قدرته لا على الثورة ولا على الإصلاح. لقد دفعه ذلك إلى التنبه إلى دور النخب الإسلامية الصاعدة خلال منتصف القرن الماضي في أغلب البلدان العربية، بما في ذلك التحولات الفكرية لنشطاء ناصرين سابقاً، كطارق البشري (مصر) أو شيوعيين كعادل حسين (مصر). وسيشكل هؤلاء مع شخصيات إسلامية أخرى، كراشد الغنوشي، برنامج نهضة جديدة مستوحاة من الفكر الإسلامي التجديدي. ومن جهة ثانية، سوف تتجلى له سياسة النهب المنهج الكولونيالي الفرنسي للجزائر حتى بعد استقلالها. وربما هذا ما سيجعل فهمه للحركات الإسلامية على أنها رد فعل على السياسات الكولونيالية التي تتخذ أشكالاً مختلفة، بما في ذلك الشكل الثقافي المتمثل في بناء الآخر المسلم الرافض للانخراط في بعض مفاهيم الحداثة الغربية. وهذا سيجعله يركز على تقليد طويل من مساندة الغرب لما يسميه أشباه بينوشيه العرب («Pinochet arabes»).

- ٣ -

أهمية دراسات فرانسوا بورغا هي في رصد ديناميات الخطاب والفعل العملي للإسلاميين بدون وضع «الإسلام السياسي» في بوتقة واحدة. وربما كان عليه عدم استخدام هذا التعبير في كتابه. أنا أفضل استخدام الفكر الإسلامي - السياسي أو الحركات الإسلامية، لأنه غالباً ما استخدم تعبير «الإسلام السياسي» باعتباره قدحاً بمجموعات حركية معينة، والإيحاء بأن اتجاهها واحد يتألف من قارئي سيد قطب من الإخوان المسلمين إلى القاعدة. والطريف أن من يستخدم هذا النعت هم غالباً حاملو الإسلام الرسمي الذي يعتبرون إسلامهم

المزورة» التي تماهي ثقافة الآخر المسلم مع ثقافة الأكثرية، ليصبح مع هذه العلمانية شرب الكحول جزءاً منها. وكما حاجج الشيخ حسن الترابي المتصوفة ضد شكلاياتهم بدعوة السودانيين بالصلاة بأي لباس بما فيه البنطال، يدعو بورغا الحداثة الفرنسية بأن لا تكون شكلائية، فمن حق المرأة لبس ما تريده، بما في ذلك الحجاب.

- ٥ -

ويقف بورغا طويلاً متحدثاً عن صداقته مع الفيلسوف السويسري من أصول مصرية طارق رمضان، وأيضاً عن اختلافاته معه، في ما يتعلق بتحليل رمضان للانتقاضات العربية. يستحضر بورغا كيف منعت فرنسا رمضان من دخول أراضيها، وإلقاء محاضرات في بعض مدنها، وهو المصلح الحقيقي (الذي يدفع بقاطرته العربات الأخرى) ذو الشعبية الواسعة، وبخاصة لدى فئات الشباب الأوروبي المسلم. لقد اشتهر طارق رمضان^(٥) بمفهوم الاندماج الإيجابي، داعياً مسلمي أوروبا إلى ممارسته. فهو يدعو من سماهم «مسلمو الغرب» (Western Muslims) إلى أن يساهموا بشكل إيجابي في تطوير وتنمية مجتمعاتهم لتكون أفضل، بدلاً من التفكير في ازدواجية «نحن» و«هم»^(٦). وهذا ما يسميه بمقاربة ما بعد الاندماج (Post-integration). في الوقت الذي يقوم الإعلام الفرنسي، بصيد الساحرات ضد رمضان، يقوم بورغا بالترويج لأئمة تتكلم كلاماً، يريح المستمع الفرنسي، مثل الإمام حسن الشلغومي. لقد رصد بورغا ازدواجية المعايير في فرنسا، واعتبر أن حرية

مع آخرين في دفع هذه الانتقاضات أو/ والاستفادة منها، قبل انتشار الثورات المضادة بتحالف بين العسكر وبعض النخب اليسارية والأموال النفطية. وهنا يظهر بورغا حساسية شديدة للدور الإقليمي والدولي في تطييف بعض هذه الانتقاضات، كما هي الحال في اليمن والبحرين وسورية. كما يخصص فصلاً حول حماس التي عانت ما يسميه الهيمنة الثلاثية: الهيمنة من إسرائيل ومن السلطة الفلسطينية تحت سوط فتح، وأخيراً الهيمنة الغربية التي رفضت قبول نتائج الانتخابات التشريعية الفلسطينية التي أعطت الأغلبية لحماس. وهنا يتذكر فرانسوا بورغا، كيف أن خطاب المستوطن الذي جلس معه في سيارة النقل العام من القدس إلى تل أبيب لا يختلف عن ذلك المستوطن الفرنسي في الجزائر.

ينتقل بورغا إلى تناول وضع العرب والمسلمين في فرنسا أو ما يسميهم «الآخر» من هم عندنا» وكيف أن فرنسا حكومة وإعلاماً، قد سمحت بالأصوات الإصلاحية لتجعل من «الإسلام في فرنسا» إسلاماً فرنسياً بنخب تتكلم ما يرغب أن يسمعه المستمع الفرنسي. وهنا يستخدم بورغا استعارة لطيفة من قطار انفصلت فيه القاطرة عن العربات. فإذا اعتبرنا أن المصلح هو قاطرة جيدة يتم بها سحب العربات، فقد بدأ سائقها بالسير بها وحدها، ويصفق له المتفرجون على طول السكك الحديدية (وهم كناية عن الجمهور الفرنسي المستمع للمصلح)، ولكنه قد انفصل نهائياً عن العربات الأخرى (أي الجمهور المسلم الذي من المفترض دفعهم إلى الأمام). وهكذا، ينشر هؤلاء المصلحون ما يسميه بورغا «العلمانية

Tariq Ramadan, *Western Muslims and the Future of Islam* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2005).

Tariq Ramadan, *What I Believe* (New York: Oxford University Press, 2009).

(٦)

مهمشون اجتماعياً، مما دفعهم ذلك إلى الراديكالية. وكما بين روا في كتابه المهم الجهاد والموت عدمية (Nihilism) الفعل الإرهابي^(٧). ويظهر من خلال عرض مسارات بعض الذين تركوا فرنسا إلى العراق وسورية، أنهم لم يَمروا عبر الجوامع السلفية، وتالياً، هناك فهم فردي للإسلام الذي جاء لاحقاً على راديكاليتهم. وهنا ينتقد بورغا زميله روا بأنه لم يأخذ بعين الاعتبار الآثار المترتبة على علاقات الهيمنة بين الشمال والجنوب، وأهمية القضية الفلسطينية بالنسبة إلى هؤلاء الذين يشعرون بأنهم غرباء في بلدهم فرنسا. وهنا أوجه نقداً إلى بورغا، أن المطلوب الجمع بين هذه القضايا المهمة التي يطرحها هو، وبين التحليل السوسيولوجي والسوسيولوجي - النفسي الذي يركز عليه روا.

- ٧ -

أخيراً، إذا كان لفرنسا بورغا حسرة بتهميشه سياسياً وإعلامياً في فرنسا، فهو يبقى أحد أهم من ترك أثراً طيباً في التطور الفكري للجاليات المسلمة في أوروبا ومؤسساتها، والتنظير لحق عودة هذه الجاليات إلى قاموسها الاصطلاحي الإسلامي. فخلال مقابلات أجريتها حديثاً مع بعض الفاعلين في الجالية في فرنسا، تبين لي أن نداء بورغا للجالية والفرنسيين بعامه، بالتصويت للمرشح إيمانويل ماكرون لتجنب الأسوأ، أنه قد لاقى استحساناً لدى الجالية التي صوتت بأغليبتها لهذا المرشح. وربما كان صوته مسموعاً أكثر من صوت طارق رمضان الذي نادى بما سماه «الامتناع الناشط عن التصويت» (Active Abstention) □

التعبير هناك تتسم بـ «انتقائية»، منتقداً تعامل السلطات الفرنسية مع أحداث مجلة شارلي إيبدو؛ إذ تضامنت السلطات بشكل «أعمى» مع المجلة التي تعرضت لهجوم في عام ٢٠١٥.

- ٦ -

في هذا الكتاب، لحظات صارمة من النقد مع بعض الباحثين المختصين بالشأن الإسلامي، أوليفيه روا وجيل كيبييل، اللذين يحتكران المشهد الإعلامي - السياسي، ولكن أيضاً بعض السياسيين ذوي نزعة الإسلاموفوبيا، وبخاصة بعد تعرض باريس لهجمات إرهابية في عام ٢٠١٥. فمنذ بداية الصفحة الأولى، وهو يتهمك بإهداء كتابه إلى روا وكيبييل اللذين نفحا فيه رغبة جامحة في تأكيد أفكار أخرى. وعلى صعيد آخر، شكر بورغا رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك، إمانويل فالس ومستشاريه، «المغامرين المؤججين لدراما يرثى لها لسحب الجنسية من أولئك غير المرغوب بهم»، حيث أعطوه رغبة أقوى في إثبات أن مثل هذا المشروع الانتهازي لأسباب انتخابية، سوف يكلف كثيراً الشعب الذي يدعون خدمته. لقد بين بورغا أن التفسير الأكثر شيوعاً لظاهرة «الجهادية»، سواء لدى الغرب أو حتى لدى بعض الأنظمة العربية، يصرّ على اعتبار الجهاديين «متعصبين» (fanatiques)، ما يعدّ وسيلة لإنكار أن هناك سياقاً تاريخياً وسوسيولوجياً، أنتج هؤلاء «المتعصبين». وإذا كان هؤلاء بالنسبة إلى «كيبييل» مجانيين الله، فهم بالنسبة إلى «روا» مجانيين بكل بساطة! وبينما يظهر كيبييل أن المشكلة في الإسلام كعقيدة ضمن براديغم راديكالية الإسلام، فبالنسبة إلى روا هناك «أسلمة للراديكالية». فالإرهابيون هم أولاً